هل العمران الاوربي في خطر

سألنا احد مشتركي المقتطف في الشهر الماضي سؤالاً مفاده هل يحتمل ان تفقد ممالك اوربا عمرانها وتستعيدها ممالك اسيا وافريقية. فاجبناهُ ان ذلك بعيد الاحتمال . وهذا السؤال خطر على بال غبن Gibbon المؤرخ الانكليزي الطائر الصيت صاحب التاريخ المسمَّى تداعي الامبراطورية الرومانية وسقوطها Decline and Fall of the Roman Empire فاجاب عنهُ بالنفي . فان الامبراطورية الرومانية بلغت من العظمة والسؤدد ما لم تبلغهُ مملكة قبلها ثم طما عليها سيل البرابرة الجارف من الشمال بعد ما غمر عظامها سوس الخراب فتداعت امامهُ وسقطت والسدل ظلام العصور الوسطى على اوربا . فقال غبن هل يحتمل ان يتكرّر ذلك واجاب باستحالتهِ. وعندهُ ان سبب الاستحالة هو ان برابرة الشمال الذين طغى سيلهم على اوربا في الزمن الماضي قلَّ عددهم جدًّا ولانهم اذا حاولوا مناوأة الممالك الاوربية الآن اضطروا اولاً ان يأخذوا باخذها في اساليب العمران كما فعل الروس فيدفعهم ذلك الى المسالمة والسير في سبيل المدنية

وقد تناول هذا الموضوع كاتب انكليزي في مجلة القرن التاسع عشر وقال ان استشهاد غبن بروسيا افسد حجتهُ لعم انهُ لم يكن يخطر على بال احد في عهد الامبراطورة كاترينا ان بلاد الروس يتسلط عليها مثل لنين وترتسكي ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان . ثم ان ما استبعد غبن حصولهُ من بقاء البرابرة على بربريتهم بعد ان يتعلموا ويأخذوا باساليب العمران حصل فعلاً لان الالمان وهم نسل اولئك البرابرة الذين قوضوا دعائم العمران الروماني برعوا في كل العلوم والفنون لكن ذلك لم يعصمهم عن العبث بعمران اوربا

ولا مشاحة ان العمران الاوربي لا يحتمل ان ينزعزع من قوة بربرية تأتيهِ من الخارج ولكنهُ في خطر داخلي قد يقضي عليهِ كما ان الانسان يموت ولو لم يقتلهُ احد . وهذا الخطر يراهُ كل مفكر وقد اشرنا اليهِ فيما كتبناهُ عن المظاهرة والاعتصاب في مقتطف يوليو حيث قلنا « ان للعمران الاوربي سيئات كما لهُ حسنات وكما ارتقى بحسناتهِ حتى فاق عمران رومية وقرطاجنة واثينا ومصر وبابل يخشى ان تهبط بهِ سيئاتهُ »

وقد جاءتنا شركة روتر في ٦ يوليو بتلغراف يقال فيه ان اللورد روبرت سسل خطب في هنشن فقال « ان الحالة الاقتصادية من اسوإ ما يكون فالناس لا يجدون الكفاية من الطعام وقد حلَّ الخلل العام بجميع وسائل النقل واشتدَّ الضرر بنظام الكرديتو (اي المعاملات المالية) كله او انتقض تماماً . واهم مشكلة في الشؤون الاجنبية هي السعي الى اصلاح الحالة الاقتصادية ولاجل هذا الغرض يجب علينا حرصاً على مصلحتنا ايضاً ان نساعد اوربا اذا اقتضت الحال وان نكيف سياستنا في دور السلام حتى لا نؤخر نهضة اوربا من كبوتها الاقتصادية لاننا اذا اخَّرنا هذه النهضة فلا نستغرب ان تنتشر افكار الثورة انتشاراً يطغي على كل بلاد من بلدان اوربا وقد يغرقنا نحن ايضاً »

وجاء من رومية في الخامس من يوليو انهُ جرت فيها مظاهرات احتجاجاً على غلاء الاطعمة في تورينو وليفورنو وبلرمو ثم قبلَ تجار رومية ان يخفضوا الاثمان ٥٠ في المئة . وجاء منها ايضاً ان الناس هجموا على مخازن الطعام والثياب في ميلانو وسواها من المدن . وشرعت الحكومة تتخذ اشد التدابير في معاملة المحتكرين . وانذر عمال الموانئ بالاعتصاب في عدة مدن بحرية

وقلما يمرُّ يوم لا يقع فيه اعتصاب واضطراب في ممالك اوربا اما لسبب حقيقي او لسبب وهمي . والذين يحثُّون على الاضطراب والاعتصاب يفعلون ما ينتج عكس الغاية التي يرمون اليها لانهم يقصدون راحة العمال بتقليل ساعات العمل وزيادة الاجور وترخيص اسباب المعيشة ولكن تقليل ساعات العمل ينتج تقليل ربح المعامل وتقليل ما يعمل فيها فيتعذر على اصحابها ان يزيدوا اجور العمال واذا زادوها افلسوا واذا لم يفلسوا فزيادة الاجور مع تقليل ما يُعمَل يزيد الغلاء فيقع العمال فيما يقصدون الهرب منهُ ويتهددون السبيل لانتشار البلشفية

ويمكن وصف الحالة في اوربا وفي كل البلدان التي اصابتها ويلات الحرب كسورية وبر الاناضول بان السنوات الخمس الماضية كانت سنوات استهلاك لا سنوات انتاج فقلَّت الحاجيات والكماليات من طعام وعلف ووقود وثياب وآلات وادوات لان بعضها تلف او خرب في سني الحرب وبعضها لم يُنتَج منهُ ما كان ينتج عادة لقلة الايدي العاملة. وقلما شعرنا نحن بذلك في هذا القطر لان الايدي العاملة لم تقلَّ الاَّ قليلاً ولأن اكثر اعتمادنا على غلات الارض وهذه بقيت على

حالها تقريباً ولكن الذين عندهم آلات يجب ان يجدّد بعضها كل سنة لا يستطيعون ان يجددوا ما تلف منها في سنوات الحرب الخمس الاّ باضعاف ثمنه الاصلي. واتفق ان حلّ في القطر زمن الحرب جانب كبير من الجيش البريطاني فانفق فيه نفقات طائلة ملأت جيوب كثيرين من السكان ولولا هذه الاسباب الثلاثة اي كون البلاد زراعية وعمالها لم يقلوا الاّ قليلاً وانفاق الجيش البريطاني فيها نفقات كبيرة لساءت الحال جداً. نعم ان الحاجيات والكماليات غلت كلها ضعفين او ثلاثة اضعاف ولكن غلات الارض غلت ايضاً على هذه النسبة. واكثر السكان إما اصحاب اطيان او مستأجرون لها او مشتغلون بالزراعة فزاد ربحهم منها كما زادت لوازم المعيشة فلم يقع بهم ضيم ولا وقع بالتجار والباعة غبن بل ربحوا من وراء زيادة الاسعار وانتصر الضيم على الذين لا دخل لهم الاّ من اجورهم واجورهم محدودة وهؤلاء قلائل في القطر واذا زادت قيمة ما يعملونه فاصلاح الحال سهل ولا يخشى الاّ من ان ينفخ في آذانهم اناس يتّجرون باثارة الخواطر ويستفزوهم الى تقليل ساعات العمل فيقل ربح اصحابه ويتعذر عليهم زيادة الاجور. ومسألة القطر المصري ثانوية اذا نظرنا الى حال العالم اجمع وما يتهدد اوربا بنوع خاص اذا جرى فيها ما جرى في روسيا

فان روسيا كثيرة الخيرات جداً كان سكانها بالامس من ابسط الناس معيشة حاجياتهم قليلة ينتجون من ارضهم اكثر مما يستهلكون ويصدرون ما زاد من غلاتهم. ولما نشبت الحرب قلّ الانتاج ونفد المخزون في البلاد ولكن خيرات البلاد كانت على حالها لما نشبت الثورة فيها ولم يقع الضيق حينئذٍ الاّ لقلّة وسائل النقل والتوزيع فسئم الفقراء الحرب وطعامهم سقيم وقيل لهم انهم يسلمون ويستريحون اذا ابطلوا الحرب واختطفوا اموال الاغنياء ومحتكري الطعام. فلم يكذبوا ان فعلوا بما قيل لهم فاوقعوا بالاغنياء واصحاب الاملاك فتلوا البعض ونفوا البعض الآخر والذين سلموا من القتل والنفي انحطوا الى ادنى دركات الفقر فلا يندر ان تجد واحداً عن وجهاء الامة يعيش بكنس الاسواق او ببيع الجرائد وهذا الفعل لم يغنِ الفقراء بل زادهم فقراً على فقرهم. وتداعت اركان الزراعة والصناعة الى ان كادتا تفنيان. فالصناع تولاهم الكسل والزرّاع وجدوا ان غلات ارضهم يستولي عليها غيرهم ويعطيهم بدلاً منها اوراقاً لا يستطيعون ان

يبتاعوا بها شيئاً فكثر الخطف والنهب ولكنهما لا يدان مطمعاً ولا يشبعان من جوع . ومتى جعل الناس يتخاطفون الارزاق فقُل على الامن السلام لان الجوع كافر والرزق المخطوف لا تتداوله الايدي ولا يغني من جوع. وصارت الاطعمة آلة في يد الحزب الحربي لاسترضاء هذا والتنكيل بذاك يخصونها بانصارهم ويحرمون منها خصومهم ولا يعطى الطعام الى حد الشبع الا لمن ينتظم في جيشهم المحارب معهم. وما دامت البلاد كلها في حرب فالحرب لا تفيد شيئاً وانما يستفيد من الحرب من يحارب اجنبياً ينال بحربه مغنماً او يدفع مغرماً . ولا حاجة بنا الى الاسهاب فيما اصاب بلاد الروس من الفوضى الضاربة اطنابها فيها ولا الى التنبؤ عما تؤول حالها اليه بعد ان فقدت زهرة المتعلمين فيها والدهاة الى حسن العمل فان ذلك اصبح معلوماً لدى قراء الصحف اليومية . ولو امكن ان تحاط بلاد الروس بنطاق صحي يمنع انتشار الفوضى منها الى غيرها لامكن حصر الشر فيها الى ان يأكل نفسهُ ثم تنمو بزور الخير ثانية من نفسها او بمن يتعهدها من المصلحين الاوربيين. ولكن الشر لا يحصر والمرجح ان عدواه انتقلت الى البلدان المجاورة نقلها البلشفيك انفسهم لانهم متعصبون لمذهبهم ومصلحتهم تقتضي انتشار دعوتهم حفظاً لوجودهم ولانهم قد التهموا كل ما في بلادهم من الخيرات التي وصلت اليها ايديهم فسبيلهم ان يدخلوا بلاداً جديدة ويغنموا خيرات اخرى . وبعض البلدان المجاورة لهم ضعيف لا يستطيع مقاومتهم وغيره انهكتهُ الحرب فصار كثيرون من سكانهِ على استعداد لقبول المبادىء البلشفية التي مدارها على اختطاف ما في يد الغير وذلك لقلة الحاجيات والكماليات حتى صارت اقل مما يحتاج اليهِ السكان. فاذا كان اهل بيت يحتاجون الى عشرة ارغفة من الخبز في يومهم ولم يستطيعوا ان ينالوا بالوسائل المحللة سوى خمسة فقد يصبرون يوماً او يومين ولكنهم يثورون بعد ذلك ويخطفون الخبز من اصحابهِ واذا وقع هذا التنازع بين اهالي المملكة كلها لم يردعهم رادع عن الثورة الا الى حين

كان المرحوم اللورد كرومر يقول لنا « لا يثور السكان في بلاد الا من ظلم او من جوع » وقد يثورون بتحريض المحرضين ولكن ثورتهم لا تطول ولا تكون شاملة كالثورة التي سببها الظلم او الجوع . واذا كانت اسباب الثورة

محصورة في بلادواحدة فقد لا يطول امرها حتى تزول « كالنار تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكله » ولكن اذا كانت في بلدان كثيرة متاخمة وما منها بلد يستطيع ان يساعد الآخر بل كل منها يحاول اختطاف ما عند غيره فهناك الطامة الكبرى

وقد افتقرت ممالك اوربا كلها في هذه الحرب بمن قُتل من رجالها وما احترق من موادها وأهمل من زراعتها وامست محتاجة الى اشياء كثيرة ولاسيما الى الطعام . ولا عبرة بالاغنياء الذين يستطيعون ابتياع طعامهم مهما غلا ثمنهُ بل العبرة بالفقراء والاواسط الذين هم اكثر من تسعة اعشار السكان فهؤلاء ليس في اوربا ما يكفيهم من الطعام فاذا جاعوا في الشتاء المقبل فقد يتعذر ان لا تنتشر البلشفية فيهم حتى لقد اشار الدكتور ولسن بارسال الطعام الى المانيا قبل عقد الصلح لكي لا تنتشر البلشفية فيها لاسيما وانها على تمام الاستعداد لانتشارها بل كل اوربا على تمام الاستعداد لها كيف ولا طعام فيها للسكان ولا ثيران للحرث ولا حبوب للبذار فاذا قلّ الطعام الوارد اليها من اميركا واستراليا فالقليل الذي فيها يتخاطفهُ الجياع وهناك مبدأ البلشفية . لكن وقد عقد الصلح وصار استيراد الطعام وتوزيعهُ اسهل مما كان فالمرجح ان عتلاء الامم يضربون على ايدي جهلائها ويمنعونهم من العبث براحتها ولو اضطرّ اهل السعة ان ينفقوا نصف ما يملكون ويشركوا غيرهم بما لديهم من الارزاق

ونحن في هذا القطر الطعامُ ميسور لدينا فلا يخشى ان يموت احد منا جوعاً ولكن يتهددنا خطر آخر من الذين يصطادون في الماء العكر كما يقول الافرنج — من الذين يحرضون العمال على الاعتصاب والاضراب عن العمل فاذا اضربوا جاعوا وثاروا وانتشرت العدوى منهم الى غيرهم بفعل عصبي كما حدث منذ بضعة اشهر . الافراد يعملون عن قصد وروية واما الجماعات فتندفع مع التيار ولو لم يكن امامها سوى جرف هار . فاوجب ما يجب على رجال الحكومة وعقلاء الامة ان يمنعوا كل اعتصاب واضراب ، وان يضربوا على ايدي المهيجين ولو اضطروا ان يخرجوهم من البلاد كما يجب على اصحاب الاعمال ان يزنوا الامور بميزان العدل ولا يدعوا سبيلاً للشكوى . والمنتظر انهُ لا تمضي سنتان حتى تزول الكوارث المعاشية التي جرّتها هذه الحرب وتعود المياه الى مجاريها